أسباب الخسران وآثاره في القرآن

أمر الله عز وجل بتدبر القرآن الكريم فقال تعالى:﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ «ص-٢٩»، وذم من قصر في تدبر كتابه الحكيم فقال تعالى:﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾«النساء -٨٢».

ومن تدبر القرآن النظر في ألفاظه الكريمة وما اشتملت عليه من معان عظيمة ومقاصد كلية وأحكام شرعية، ترد أحياناً على سبيل البيان والتفصيل، وترد في أحيان أخرى على سبيل الاجمال في موضع ويأتي تفصيلها في مواضع أخرى.

ومن تلك الألفاظ التي وردت مجملة في موضع ومفصلة في آخر (الخسر) كما جاء في قوله عز وجل: ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾«العصر ١- ٣»، وقد جاء في آيات كثيرة تفصيل لهذا الاجمال، حيث ذكر الله عز وجل أسباب الخسران وآثاره وسبيل النجاة منه، وسيطوف بك هذا المقال في جولة موجزة لتتبع بعض موارد لفظ (الخسران) في القرآن لتتضح معالم هذه الحقيقة القرآنية الخطيرة.



وتكمن أهمية هذا البحث الوجيز فيما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من وعيد شديد وبشارة عظيمة، أما الوعيد فهو انه عز وجل حكم بالخسران على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأربعة: وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، أما البشارة فهي لأهل الإيمان والعمل الصالح حيث يكون الناس في خسر- وهو النقصان- ويكونون هم في زيادة من أوجه الخير الدائم.

فإذا كان الأمر بهذه الخطورة، فحري بالمكلف أن يعرف ما هو الخسران، وماهي أسبابه، وما هي آثاره، وكيف تكون النجاة منه، وهذا ما تتناوله المحاور التالية:

أولاً: تعريف الخسران

يأتي الخسران في اللغة بمعنى النقص، كما قال ابن فارس «خسر:الخاء والسين والراء أصل واحد يدل على النقص يقال خسرت الميزان وأخسرته إذا نقصته».

ومن معاني الخسران الضلال والهلاك كما جاء في لسان العرب: «والخسار والخسارة: الضلال والهلاك وفي التنزيل العزيز ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر﴾ «العصر: ١-٢»، قال الراغب في المفردات في غريب القرآن: «الخسر والخسران انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته قال تعالى: ﴿تلك إذاً كرة خاسرة﴾ «النازعات- ١٢»، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجية كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين وقال :﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾«الزمر- ١٥»، وكل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية والتجارات البشرية».

ثانيا: أسباب الخسران

جاء في آيات كثيرة ما يبين أن أسباب الخسران نوعان: الأول يوجب الخسران المطلق الذي يستوجب الخلود في النار، والثاني يوجب مطلق الخسران الذي يستحق فيه العبد العقوبة بسبب ذنوبه



بقلم: د. وليد خالد الربيع
الكويت

ويكون تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه بفضله ورحمته، كما قال الشيخ ابن سعدي: «لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسران هو خسارة الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفرا وقد يكون معصية وقد يكون تفريطا في ترك مستحب المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ «العصر-٢»، فهذا عام لكل مخلوق إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه».

فمن النوع الأول:

١- الشرك: قال عز وجل: ﴿ولقد أوحي إليك، وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾«الزمر-٦٥»، قال ابن كثير: «وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾، من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾، هذا مفرد مضاف يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام – لما عدّد كثيراً من أنبيائه ورسله حيث قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾

«الأنعام-٨٨»، وقوله: ﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ «الزمر-٦٥»، دينك وآخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال».

٢- التكذيب بلقاء الله: قال عز وجل: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾ «الانعام -٣١»، وقال عز وجل: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾«يونس -٤٥»، قال ابن سعدي: «أي: قد خاب وخسر، وحُرم الخير كله، من كذب بلقاء الله، فأوجب له هذا التكذيب، الاجتراء على المحرمات، واقتراف الموبقات».

٣- الكفر والردة وعدم الإيمان والإعراض عن الإسلام: قال: عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾، وقال عز وجل: ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ «البقرة-١٢١»، وقال تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ «المائدة -٥»، أي: ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره، كما قال تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ «البقرة-٢١٧»، قال ابن سعدي: «حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة».

وقال تعالى: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ «الأنعام-١٢»، قال ابن كثير: «وقوله ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي يوم القيامة ﴿فهم لا يؤمنون﴾، أي لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم».

وقال ابن سعدي: «قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي: فوتوها ما خلقت له، من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فهم لا يؤمنون﴾ .

وقال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ «آل عمران- ٨٥»، أي من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، اخلاصاً وانقيادا لرسله فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل، وفي الصحيح «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» (رواه مسلم).

وأما النوع الثاني من أسباب الخسران فمنه:

١- اتخاذ الشيطان وليا

توعد الله جميع الناس بالخسران إلا من أتى بأربعة أشياء: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر

قال تعالى:﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾ «النساء-١١٩»، وقال:﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ «المجادلة-١٩»، قال ابن سعدي: «وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرهم، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾ «النساء -١١٩»، وأي خسار أعظم ممن خسر دينه ودنياه وأوبقته معاصيه وخطاياه فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدي، كما أن من تولى مولاه وآثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قرير العين».

٢- سوء الظن وسوء العمل

قال تعالى: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ «فصلت-٢٣»، «قال الحسن: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل»، وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ «فصلت-٢٣» (رواه أحمد)، قال ابن سعدي: « لأنفسهم وأهليهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء».

٣- نقض ما أمر الله به

قال تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾«البقرة:٢٦-٢٧»، قال ابن سعيد: «ثم وصف الفاسقين فقال: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾، وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه والذي بينهم وبين عباده الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإلزامات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالايمان به ومحبته وتعزيزه والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق التي أمر الله أن نصلها، فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق، وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين



عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي، وهو: الإفساد في الأرض».

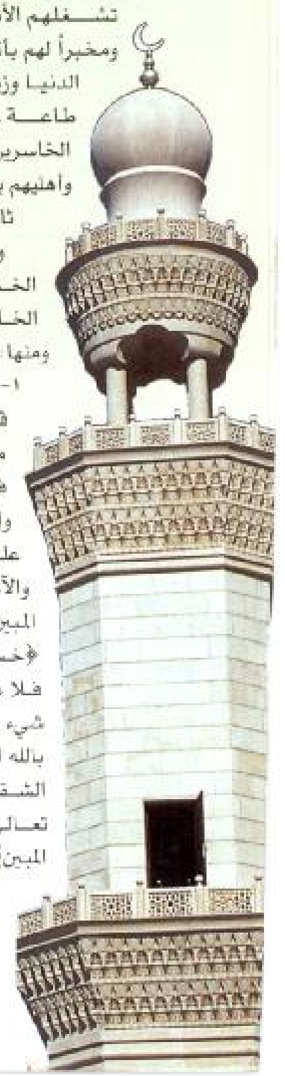
٤- الأمن من مكر الله: قال تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ «الأعراف-٩٩»، قال ابن كثير: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن».

٥- التشاغل بمتاع الدنيا من الأموال والأولاد: قال تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ «المنافقون-٩»، قال ابن كثير: يقول تعالى آمرا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

ثالثا: آثار الخسران

ورد في آيات كثيرة آثار الخسران وما يلحق العبد الخاسر في الدنيا والآخرة ومنها:

١- خسران الدنيا والآخرة: قال تعالى:﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ «الحج-١١»، وقوله: ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة.



٢- خفة الموازين: قال تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ «الأعراف:٨-٩» وقال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ «المؤمنون:١٠١-١٠٣». قال ابن سعدي: «ومن خفت موازينه» بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها، ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل لهم العذاب الأليم ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ فلم ينقادوا لها كما يجب عليهم ذلك.

٣- خسران النفس والأهل: قال تعالى: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ «الزمر-١٥». قال ابن كثير مبينا خسران الأنفس: «أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، وقال أيضا: ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور».

٤- الضلال: قال تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾«الأعراف-١٧٨».

٥- حبوط العمل: قال تعالى: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾«التوبة-٦٩». قال ابن كثير:﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة في الدنيا والآخرة ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

٦- عدم المغفرة أو الرحمة: قال تعالى عن نوح عليه السلام ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ «هود -٤٧»، وقال تعالى عن بني إسرائيل﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ «الأعراف-١٤٩»، فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين.

٧- دخول النار: قال تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ «الأنفال -٣٧»، وقال تعالى:﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ «النمل-٥».

رابعاً: كيفية النجاة من الخسران

من رحمة الله بعباده أن بين لهم سبيل النجاة من الخسران في الدنيا والآخرة كما قال الرازي: «لسائل أن يسأل فيقول: إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب، وفي جانب الربح ذكر السبب وهو الإيمان والعمل الصالح ولم يذكر الحكم فما الفرق؟ قلنا: إنه لم يذكر سبب الخسر، لأن الخسر كما يحصل بالفعل- وهو الإقدام على المعصية، يحصل بالترك وهو عدم الإقدام على الطاعة- أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل، وفيه وجه آخر: وهو أنه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل، وفي جانب الربح فصل وبيّن، وهذا هو اللائق بالكرم» فسبيل النجاة من الخسران هو القيام بما ذكره عز وجل في سورة العصر كما قال ابن سعدي: «عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان بما أمر الله الإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم فهو فرع عنه لا يتم إلا به، والعمل الصالح وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي يوصي بعضهم بعضا بذلك، والتواصي بالصبر، على طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم.